

الحياة الزراعية في طرابلس وبرقة زمن الدولة الإسلامية

الدكتور/ علي محمد سميو - قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة مصراتة

المقدمة

تباينت الوضعيات الطبيعية والإنتاجية بمختلف أقاليم ليبيا بحسب درجة قساوة المناخ وتبعاته على الحياة الاقتصادية، حيث برز أقليما برقة في الشمال الشرقي وطرابلس في الشمال الغربي كمنطقتين اقتصاديتين متميزتين عن غيرهما، في حين برزت المنطقة المحصورة فيما بين تاورغاء وأجدابيا كصحراء قاحلة غير قابلة للاستغلال الزراعي، وبدرجة أقل المناطق الجنوبية، والتي لم تكن قادرة على الإنتاج إلا في نطاق الواحات الضيقة⁽¹⁾، وهذا ما جعل الإنتاج الفلاحي في كل أقاليم ليبيا لا يعرف انتظامه نتيجة لتذبذب تساقط الأمطار، والتي بدورها تتعرض المنطقة لحالة جفاف شديد مرة كل خمس أو ست سنوات، وقد يستمر في بعض الأحيان سنتين متتاليتين مما يؤثر على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية⁽²⁾.

وإذا كان هذا الإطار الطبيعي العام للموارد الطبيعية، فإن الجغرافيين والرحالة قد اهتموا كثيراً برصد معالم وضعية البلاد، سواء من الناحية الطبيعية، خاصة مصادر المياه و مناطق الجفاف الصحراوي، أو وضعية الإنتاج الفلاحي⁽³⁾.

فعقب دخول الإسلام إلى إقليمي برقة وطرابلس استعادت المنطقة أمنها وطمأنينتها واستقرارها، مما ساهم في اندفاع الناس إلى مواصلة نشاطهم الاقتصادي، فكثر المزارع وتنوع إنتاجها من حبوب وثمار وفواكه⁽⁴⁾،

(1) الواحات: واحدا واح، على غير قياس لا أعرف معناها وما أظنها الإقبضية وهي ثلاث كورفي غربي مصر تم غربي الصعيد، لأن الصعيد يحوطه جبلان غربي وشرقي، وهما جبلان مكنفا النيل من حيث يُعلم جريانه إلى أن ينتهي الجبل الشرقي إلى المقطم بمصر وينقطع وليس وراءه غير بادية العرب والبحر القزمي = ياقوت الحموي، معجم البلدان، 341/5 - 342.

(2) عبد اللطيف البرغوثي، تاريخ ليبيا الإسلامي، ص 16.

(3) محمد الحراري عبد السلام، ليبيا عبر كتابات الرحالين المغاربة في القرنين السادس عشر والسابع عشر الميلاديين، ص 164.

(4) من الجغرافيين والرحالة الذين تحدثوا عن الازدهار الاقتصادي و تنوع الإنتاج في برقة وطرابلس خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين.

- البعقوبي، فتوح البلدان، ص 181 - 183.

- ابن حوقل، صورة الأرض، ص 69 - 70، 92.

- الكرخي، المسالك والممالك، ص 33.

- المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص 224.

وأستغلت الأراضي الصالحة للزراعة الموسمية وخاصة في السهول الساحلية والوديان المنتشرة في الإقليمين في مناطق متفرقة، الأمر الذي ترتب عليه انتعاش في الحياة الزراعية والرعية بصفة عامة.

ولكن ما إن انتعشت الحياة الاقتصادية حتى انتابت البلاد الهجرات العربية من بني هلال وسليم في منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي، الذين أصابوا اقتصادها بالتعطيل بل بالتهديم في بعض الأحيان، فتمهقرت الزراعة إلى مستوى بدائي ليس ورائه طائل، وأصبحت البلاد - خاصة إقليم بركة - تعيش على إنتاجها الرعوي وما تستورده من البلدان المجاورة لها، ولعل أبلغ دليل على الحالة التي مرت بها المنطقة ما طالعنا به كتابات الجغرافيين والرحالة والمؤرخين، فهذا الإدريسي يصف الحالة السيئة التي مرت بها بعض المدن، فيصف مدينة طرابلس بأنها كانت عامرة كثيرة الأشجار والفواكه والنخل، ولكن بعد أن دخلها العرب من بني هلال وسليم: "... أضرت بها وبما حولها من ذلك وأجلت أهلها وأقفرت بواديتها وغيرت أحوالها وأبادت أشجارها وأغورت مياهها..."⁽¹⁾. ويقول في وصفه لمدينة صرت: "... بأن بها بقايا نخيل ولا زيتون بها، وبها كثير من شجر التوت وبقايا شجر التين أيضاً كثير، غير أن العرب تأتي على أكثر ذلك بإفسادها، وليس بها من العشب ما بأوجله ولا من الثمر ما بوجدان وكان نخيلهم فيما سلف فوق الكفاف لهم، وكانت لهم أعناب وفواكه، إلا أنها قد تلفت في وقتنا هذا، ولم يبق منها شيء إلا ما كان في بطون الأودية ورؤوس الجبال،..."⁽²⁾، وهو ما يؤيده ابن خلدون في وصفه للخراب الذي حل ببرقة على أيدي الأعراب إذ قال: "... وغرست بمدائنها بادية العرب وناجعتهم، فتحينوها غارة ونهباً، إلى أن فسدت فيها مذاهب المعاش وانتفض العمران، فخربت وصار المعاش الأكثر من هؤلاء العرب المواطنين بما لهذا العهد من الملح، يثيرون له الأرض بالعوامل من الجمال والحمير، وبالنساء إذا ضاق كسبهم عن العوامل وارتكبوا ضرورة المعاش، وينجعون إلى بلاد النخل في جهة القبلة منهم من أوجلة وسنترية والواحات وما وراء ذلك من الرمال والقفر إلى بلد السودان المجاورين لهم..."⁽³⁾.

ويؤكد حديثه هذا في موضع آخر فيقول: "... وأما بركة فدرست وخربت أمصارها وأنقرض أمرها وعادت مجالات للعرب بعد أن كانت داراً للواته وهوارة وغيرهم من البربر..."⁽⁴⁾، ويقول في موضع آخر: "...

(1) الإدريسي، نزهة المشتاق، 1 / 297.

(2) المصدر نفسه: 1 / 298.

(3) ابن خلدون، العبر، 6 / 87.

(4) ابن خلدون، العبر، 6 / 103.

وجميع بطون هيب هذه استولت على إقليم طويل فخرّبوا مدنه، ولم يبق فيه مملكة ولا ولاية إلا أشياخهم...⁽¹⁾.

وعلى الرغم من الخراب الذي أحدثه الأعراب من إفساد للحرث ونهب وسلب⁽²⁾، فإنهم كانوا يميلون إلى السيطرة على المزارعين المستقرين، أو مربّي الحيوانات، وكانوا يقومون بحمايتهم في مقابل دفع أتوات أو هبات لحم وزرع، الأمر الذي ترتب عليه نشاط في مجال الزراعة، مرجعه استقرار السكان المحليون في أراضيهم ومناطقهم وقيامهم بسد حاجاتهم من المنتوجات الزراعية التي تنوعت وزادت بعد أن استقرت أغلب القبائل المهاجرة وصارت هي نفسها تزاوّل الزراعة⁽³⁾.

أولاً :- المحاصيل الزراعية:-

عقب استقرار القبائل العربية في إقليمي برقة وطرابلس بدأت تدريجياً وبحكم حياتها البدوية تمارس حياتها الطبيعية، ونظراً لأن إقليمي برقة وطرابلس من الأقاليم المعروفة بخصوبة تربتها، بدأوا يمارسون هوايتهم المفضلة في الرعي والزراعة، وقد أفادنا العديد من الجغرافيين والرحالة عن خصوبة التربة وغناها في هذه المنطقة، فذكر البكري في مجمل حديثه عن مدينة أجداية بأنها مدينة كبيرة، في صحراء أرضها صفاء، وقال عن برقة بأنها "... في صحراء حمراء التربة، ... وهي دائمة الرخاء، كثيرة الخير، تصلح بها السائمة وتنمو عليها مراعيها، ..." ⁽⁴⁾ وهو ما يؤكد صاحب كتاب الاستبصار على أن برقة "... أرض حمراء التربة كثيرة الخصب تصلح السائمة في مراعيها..." ⁽⁵⁾، وقول ياقوت الحموي على أن برقة ذات أرض خلوقية وخصبة⁽⁶⁾.

أما الأدريسي والتجاني فيجعلان مدينة طرابلس وتربتها من أخصب الأراضي على وجه المعمور، وفي ذلك يقول الإدريسي: "... وأرض مدينة طرابلس عديمة المثال في إصابة الزرع ولا يُدرى أن على معمور الأرض مثلها في

(1) المصدر نفسه: 6 / 72.

(2) نقولا زيادة، ليبيا في العصور الحديثة، معهد البحوث والدراسات العربية (القاهرة، 1966م) ص 37، كذلك: الهادي روجي، الدولة الصنهاجية، 66/2.

(3) روبرت برنثفيك، تاريخ أفريقية في العهد الحفصي، 2 / 439 - 444 كذلك: صالح السباني، ليبيا أثناء العهد الموحد ودولة الحفصية (من القرن 6 - 10 هـ / 12-16م) ص 400.

(4) البكري، المسالك والممالك، 2 / 650، كذلك: الحميري، الروض المعطار في خير الأقطار، ص 91.

(5) مؤلف مجهول، الاستبصار في عجائب الأمصار، ص 143.

(6) ياقوت الحموي، معجم البلدان، 1 / 100، 289.

ذلك، وهذا مشهد معلوم ...⁽¹⁾، أما التجاني فقد قال عن طرابلس بأنها: "... ليست بلد احتراث، وهو بالجملمة بحري لا بري، إلا أن أرضهم معدومة المثال في إصابة الزرع إذا أصابت وليس يدرى مثلها في ذلك، ..." ⁽²⁾.

وإذا ما تتبعنا ما ذكره المؤرخون في الحديث عن خصوبة التربة في برقة وطرابلس لوجدنا أنهم متفقين مع الجغرافيين والرحالة، فهذا البغدادي يحدثنا عن أجدابية وصفاء أرضها وخصوبتها⁽³⁾، وهو ما يؤكد القلقشندي عند وصفه لطرابلس بقوله: "... وبها الخصب الكثير"⁽⁴⁾، وبرقة بأنها "... أركي الأراضي دواباً وأمرها مرعى..."⁽⁵⁾، كما تناول الدمشقي برقة فقال عن أرضها بأنها خلوقية⁽⁶⁾، ويصف الألوسي صحراء برقة بأنها "... أرض رمال، محيطة بالأرياف، فيها زرع وخصب ..." ⁽⁷⁾.

ومن خلال النصوص السابقة يتضح أن إقليمي برقة وطرابلس كانا يتمتعان بتربة خصبة وافرة كثيرة الخيرات، ساهمت مع توفر المياه والمناخ المعتدل - وبشكل كبير في ازدهار زراعي - وإن لم يكن في مستوى الفترة التي سبقت مجيء القبائل العربية - أدى إلى تنوع في الغلات والمحاصيل الزراعية، وهو ما نستشفه من كتابات الجغرافيين والرحالة، وقد أشار البكري إلى كثرة الثمار والبساتين في مدينة طرابلس وأجدابية⁽⁸⁾، كما وصف برقة

(1) الإدريسي، نزهة المشتاق، 1 / 297.

(2) التجاني، الرحلة التجانية، ص 258 - 259، وهو ما نقله حرفياً الحميري عن التجاني، الروض المعطار، ص 354.

(3) البغدادي، مرصد الإطلاع، 1/30.

(4) القلقشندي، صبح الأعشى، 5 / 100.

(5) المصدر نفسه: 3 / 448.

(6) الدمشقي، نخبه الدهر في عجائب البر والبحر، ص 234.

(7) الألوسي، السيد محمود شكري البغدادي، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، تصحيح: محمد بجمعة الأثري، منشورات دار الشرق (بيروت) 1 / 14.

(8) البكري، المسالك والممالك، 2 / 650، 651، 654، كذلك صاحب كتاب الاستبصار، ص 109، ياقوت الحموي، معجم البلدان، 207/3.

- وأجدابية: بالفتح ثم السكون ودال مهملة وبعد الألف باء موحدة وباء خفيفة، حكمها الإغريق ثم الرومان وكانت في عصرهم عبارة عن قلعة حربية تسمى "كورنيكلام" افتتحها المسلمون سنة 22هـ على يد عمرو بن العاص صلحا على خمسة آلاف دينار = ياقوت الحموي، معجم البلدان 1/100، غوليا لم تاردوتس، استيطان برقة قديماً وحديثاً، ترجمة: إبراهيم المهدي، الدار الجماهيرية للنشر = (طرابلس)، سعيد على حامد، المعالم الإسلامية بالمتحف الإسلامي بمدينة طرابلس، منشورات مصلحة الآثار (طرابلس، 1978م) ص 57، لوجلي صالح، المدينة المتغيرة "أجدابيا 1966 - 1990م" منشورات جامعة قاروننس (بنغازي، 1999م) ص 118، سعيد على حامد، مدينة أجدابيا نشأتها وأهمية موقعها،

- مجلة تراث الشعب، السنة 18، لعام 1988م العدد الثالث والرابع، ص 130، مسعود شقوف، أجدابيا تاريخها وأثارها (بنغازي، 1981م) ص 11، مزيداً من المعلومات عن أجدابيا ينظر =

- Abdul Hamid, Abd Vlssaid, Early Islamic monuments at Ajdabiyah Libya Antique, Nolume1, Rome, 1964, P: 115.

Seventh Annual Report, The coeity for Libyan studies, London, 1975 - 1976, p: 150.

بكنزة محاصيلها وغلالها، وفي ذلك قال: "... وهي كثيرة الثمار من الجوز، والأترج⁽¹⁾، والسفرجل، وأصناف الفواكهة، ويتصل بها شعراء عريضة من شجر العرعر⁽²⁾، وبها بساتين، ..." ⁽³⁾، كما أشار البكري إلى كثرة النخل والزيتون والفواكه في جبل نفوسة وفي مدن الواحات الجنوبية⁽⁴⁾، أما صاحب كتاب الاستبصار فإنه يؤكد ما ذكره البكري، على أن إقليمي برقة وطرابلس غني بالمحاصيل والغلات الزراعية، فقد أشار إلى مدينة طرابلس بأن "... بها بساتين في شرقها، وهي كثيرة الفواكهة جمّة الخيرات ..." ⁽⁵⁾ وأشار إلى برقة بقوله "... وعلى 6 أميال منها جبل كثير الخصب والفواكهة والمياه السائمة ..." ⁽⁶⁾ كما حدثنا عن كثرة التمور والنخيل في مدينتي أجدابية وغدامس⁽⁷⁾.

وعلى الرغم من أن الإدريسي أعطى صورة على إقليمي برقة وطرابلس وما حلَّ بهما من خراب ودمار عقب دخول القبائل العربية، إلا أنه يقدم ما يفيد أن هناك بعض المدن لم يصل إليها العرب، فغمرت قليلا بالمحاصيل الزراعية، حيث وصف مدينة جرمة وتساوة في الجنوب بقوله: "... وهاتان المدينتان يقرب بعضهما من بعض، ... عندهم نخيلات ويزرعون الذرة والشعير..."، وذكر مدينة ودان بأها: "... جزائر نخل متصلة بين غرب وشمال إلى ناحية البحر ..." ⁽⁸⁾، ووصف سوقة ابن مطكود بقوله: "... وهي قصور كثيرة وأهلها يحرثون الشعير على السقي، والعرب يخزنون بها طعامهم..." ⁽⁹⁾، ويضيف ياقوت الحموي عن البكري في حديثه عن مدينة أجدابية قوله: "أجدابية مدينة كثيرة النخل والتمور وبين غربيها وجنوبيها مدينة أوجلة وهي من أعمالها وهي أكثر بلاد المغرب نخلا وأجود ثمرا، ..." ⁽¹⁰⁾، وهو ما يدل على كثرة النخيل في الواحات الجنوبية. ويصف ياقوت تنوع المحاصيل والأشجار في إقليم

(1) الأترج: نبات معروف قشره حار ووصفه نافع للاسترخاء في العصب = على الشطشاط، تاريخ الجراحة في الطب العربي، منشورات جامعة قاريونس (بنغازي، 1999م) 899/2.

(2) العرعر: شجرة حارة يابسة، مستدير طيب الرائحة فيه شيء من المرارة. = على سميو، المقالة الثلاثون من كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف "دراسة وتحقيق، رسالة ماجستير غير منشورة (مصراته = ليبيا - 2003م) ص 495.

(3) البكري، المصدر السابق، 2 / 650.

(4) البكري، المسالك والممالك، 2/656، 658، 881.

(5) مجهول، كتاب الاستبصار، ص 110.

(6) المصدر نفسه، ص 143.

(7) المصدر السابق، ص 144-145.

(8) الإدريسي، نزهة المشتاق، 1 / 112.

(9) المصدر نفسه، 1 / 308.

(10) ياقوت الحموي، معجم البلدان، 1/100، 276.

برقة، فيقول عنها: "... وفي برقة فواكه كثيرة وخيرات واسعة مثل جوز، ولوز، وأترج، وسفرجل، ..."⁽¹⁾، كما يشير إلى وجود العديد من البساتين في مختلف مدن الإقليمين وإلى تنوع المحاصيل فيها⁽²⁾. ومما يؤكد ازدهار الزراعة في إقليم برقة وطرابلس ما ذكره القزويني في وصفه لمدينة طرابلس بأنها "... مدينة عامرة كثيرة الخيرات والثمار، ولها بساتين جلييلة، ..." ⁽³⁾.

أما ابن سعيد المغربي فيصف مدن غدامس، وأوجلة، وودان، بأنها جزائر كثيرة النخل والماء⁽⁴⁾، وأعطى تمييزاً لمدينة طرابلس "... بأنواع من الخيرات حتى الخضر والفواكهة، وفيه الزيتون والزيت والزبيب والتمر، ..."⁽⁵⁾، إلا أنه يقول بعد ذلك: "وعلى الجملة فإذا فارقت طرابلس لا تلتقي مدينة فيها حمام ولا خباز إلى أن تصل إلى الإسكندرية، ..." ⁽⁶⁾، وهو ما يوحي بأنك إذا فارقت طرابلس لن تجد أرضاً فيها زرع ولا حرث ولا حتى كثرة ماء، ولكن يعود في موضع آخر في كتابه ويناقض نفسه، فبعد وصوله إلى برقة قال عنها: "... وخصب برقة الذي فيه الأشجار والخيرات هو في الدخلة التي في جنوبها، ومسافته نحو عشرة مراحل من غرب إلى شرق، ..." ⁽⁷⁾، وربما يقصد ابن سعيد بقلة المياه والزرع ما بعد طرابلس بالمنطقة التي تعرف بمفازة برقة، وهي المنطقة المحصورة بين تاورغاء وأجدابية، وهي صحراء خالية لا ماء فيها، وقد وصف العبدري هذه المفازة أثناء مروره بما يقوله: "... ومن ذلك قوله - هنا يقصد البكري- في سُرْت: أنها مدينة كبيرة على ساحل البحر، بها حمام وأسواق، ولها بساتين ونخل، وهذا كله لا وجود له، وإنما هي قُصَيْرٌ⁽⁸⁾ صغير يعرف بالمدينة، وهو أول قصور سرت من جهة الشرق، وبينه وبين البحر مسافة، وما للنخل بسرت كلها وجود، وأظنه سمع بأن الثمر عندهم كثير فحكم بوجود النخل عندهم وغلط في عكس القضية، والتمر عندهم مجلوب من بلاد أوجلة، ..." ⁽⁹⁾.

(1) المصدر نفسه: 289/1.

(2) المصدر السابق، 99/2، 160/3، 206، 261، 25/4، 187.

(3) القزويني، آثار البلاد وأخبار العباد: ص 408.

(4) ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ص 127، كذلك: ابن سعيد، كتاب بسط الأرض في الطول والعرض، ص 61.

(5) المصدر نفسه، ص 79 - 80.

(6) ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ص 145، كذلك: بسط الأرض في الطول والعرض، ص 79 - 80.

(7) ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ص 146، كذلك: ابن سعيد المغربي، بسط الأرض في الطول والعرض، ص 80.

(8) قصير: يقصد تصغير قصر ويطلق هذا اللفظ في صحراء المغرب وفي جبال أطلس حيث يسمي إيغرم وتصغيره تيغرمت.

(9) العبدري، الرحلة المغربية، ص 158 - 159.

ويبدو لي أن ابن سعيد والعبدي على صواب في أن إقليم سرت في هذه الفترة كان صحراء لا شجر فيها ولا ماء فيها، ومرجعية ذلك أن العبدي مر بالمنطقة، ويبدو أنه لاحظ ذلك، في حين أن البكري لا توجد أي إشارة تثبت ما ذكره، على اعتبار أنه لم يقم برحلة خارج الأندلس، وإنما كان ينقل ما كتبه من خلال اتصاله بالحجاج والرحالة القادمين من المشرق، كما يبدو أن حديث البكري عن مدينة سرت قد أخذه من أحد الرحالين أو الجغرافيين الذين مروا بالمنطقة قبل منتصف القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي⁽¹⁾، كما يشير العبدي إلى عدم وجود المياه والأشجار أثناء مروره بأجدابية في الوقت الذي ذكر فيه أن بعض المؤرخين تحدثوا عن وجود المياه الجارية والأشجار والنخيل، وفي ذلك يقول: "... جدابية وهو حصن قديم على قدر دار كبيرة عالية، وذكر بعض المؤرخين أنه كان فيه ماء جار ونخل، وليس الآن هنالك إلا قصر مائل في خلاء من الأرض لا ماء جار ولا شجرة واحدة،..."⁽²⁾.

ويتفق كل من التجاني⁽³⁾ والمراكشي مع العبدي، على أن هذه الفترة كانت جذب وقفر، وهو ما نستشفه من حديث المراكشي عن مدينة انطابلس، فقال: إنها "... خراب، لم يبق منها إلا آثارها،..."⁽⁴⁾، ولكن العبدي وفي مكان آخر من رحلته يصف مدينة برنيق (بنغازي حاليا) بأنها "... أرض طيبة للزراعة كثيراً، وبها قصور عدة يخزن بها،..."⁽⁵⁾، أما ابن فضل الله العمري فأكد أن برقة خراب مقفرة ما فيها إلا بادية العرب، ... وليس بها مدينة معمورة تذكر لها أخبار⁽⁶⁾.

(1) المصدر نفسه: ص 236.

(2) العبدي، الرحلة، ص 236.

(3) يحدثنا التجاني عن قصة سمعها وهو يؤكد ما ذكره العبدي بقوله: "وعرضت لمخدومنا أعزه الله في أواخر شهر ذي القعدة، هذا شكاية شديدة وتواتر لدينا الخبر أيضا عن جذب برقة وقتنة أهلها بما لا سبيل إلى اجتيازها معه، ووصل إلينا عقد بشهادة عدول من أهل طرابلس وخطاب قاضيتها أن ركبا فيه نيف على سبعمائة نسمة جاء من برقة وأنه لم يخلص منه ماشا مائة أو نحوها، وأن سبب ذلك أنهم لم يجدوا هنالك ما يقتاتون به حاشا لحوم الحيات فعدا عليهم سمها فأهلكهم، وصح لدينا من هؤلاء الذين خلصوا منه أنهم كانوا يمرون في كثير من أرضها بالأحياء والخيام فيها مضروبة وجميع من في تلك الخيام موتى من رجال ونساء وأطفال إلى غير ذلك مما يحكونه من بيع من بقي في تلك الأحياء من الأحياء للناس وأكلهم للناس وأكلهم للمحومهم" = التجاني، الرحلة، ص 191.

(4) المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 250.

(5) العبدي، الرحلة، ص 235.

(6) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبحار (1985م)، ص 102.

ومما سبق من نصوص يبدو أن المنطقة المحصورة ما بين تاورغا وأجدابية كانت مفازة عظيمة، أما إقليم برقة فمن خلال حديث الإدريسي والعبدي وأبن فضل الله العمري، يبدو واضحا أن الخراب الذي عم إقليم برقة لم يكن شاملا لكل المدن، وهو ما ذكره الإدريسي⁽¹⁾ والعبدي⁽²⁾ على وجه الخصوص. ويوضح العديد من الجغرافيين والرحالة على أن الأسباب الرئيسة وراء هذا الخراب مرجعه الأساسي هو اجتياح قبائل العرب الهلالية والسلمية المنطقة، حيث ذكر ابن فضل الله قوله: "... قال أخبرني الأمير الفاضل ناصر الدين محمد بن المحيبي أنها - برقة - بلاد كثيرة الماء صحيحة الهواء، ... وبها المروج والأشجار الكثيرة، ... وهي اليوم بيد العرب وهم أصحاب ماشية ودواب سائمة كثيرة من الإبل والغنم، ومنهم من يزرع في بعض أرضها فتخصب زروعها، ولكنهم أهل بادية لا غاية لهم بعمارة ولا زرع،..."⁽³⁾، إلا أن الملاحظ خاصة من بداية القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي انتعاشا وازدهارا تدريجيا في مجال الزراعة، حيث حدثنا التجاني على العديد من مدن إقليم طرابلس، وكثرة المزروعات فيها، فقال عن قرية "بشرى" بأن بها سفرجل قلّ في جميع البقاع، ووصف كثرة النخيل بقرية زوارة، وتحدث عن كثرة السواني والمزارع في قرية ولول⁽⁴⁾، وعن قرية زواغة قال: "... وهي أكبر قرية في ذلك الموضع وأضخمها وبها نخل كثير ... كما ذكر أنها يحف بها كثير من شجر التين والرمان والخوخ وغير ذلك..."⁽⁵⁾، وأثناء مروره بقرية زنور قال عنها: "... فرأيت غابة متسعة الأقطار ملتفة الأشجار، ... أكثر شجرها الزيتون وأكثره من الغرس القديم على نحو زيتون الساحل، وليس يعظم شجره في موضع من المواضع ما يعظم في هذه القرية، وبها مع ذلك نخل كثير ورطبه متناهي الطيب، وبها أيضا من شجر التفاح والرمان والعنب والتين كثير..."⁽⁶⁾، كما وصف التجاني انتشار شجر الزيتون بأرض مسلاته وصرمان⁽⁷⁾.

(1) الإدريسي، نزهة المشتاق، 1 / 112، 308.

(2) العبدي، الرحلة، ص235: وقد وصف العبدي أرض برقة بأنها برية هي أم البراري والقفار، وهو يقصد المنطقة الممتدة من قرية تاورغا وحتى الخروج من مدينة أجدابية، الرحلة، ص86.

(3) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبحار، (1985) ص 101.

(4) ولول: قرية قريية من زوارة سميت بذلك لأن أقواما من البربر يعرفون ببني ولول نزلوا بها = التجاني، الرحلة، ص154، 210 - 211.

(5) المصدر نفسه، ص211.

(6) التجاني، الرحلة، ص214.

(7) المصدر نفسه، ص315.

ويبدو أن الجغرافي أبو الفدا قد نقل ممن سبقه من الجغرافيين والرحالة في حديثه عن هذه الأقاليم، فذكر أن مدينة أوجلة كثيرة النخل، وقال عن ودان: بأنها كثيرة التوت والتين والنخل⁽¹⁾. وإذا رجعنا إلى ما ذكره المؤرخون العرب فسنجد أن ليس هناك اختلافا كبيرا في الحديث عن هذه المنطقة، فهذا البغدادي قال عن مدينة أوجلة: "... قرى كثيرة، فيها نخيل كثير وفواكه"⁽²⁾، ويصف أجدابية بأنها "... أرض صفاء، ... ولها بساتين لطاف ونخل يسير، ..." ⁽³⁾، وحدثنا عن جبل نفوسه بقوله: "... وفيه نخل كثير والزيتون والفواكه...."⁽⁴⁾، أما القلقشندي فقد وصف قرية قصر أحمد بأنها بلاد زيتون ونخيل⁽⁵⁾، وذكر ابن الفرات في ذكره لحوادث سنة 672هـ / 1273م أن برقة بلاد عظيمة بما عدة مدن، ... وأكبر مدنها المرج، وهي ذات مياه ومروج وزراعات⁽⁶⁾، كما أشار سراج الدين الوردی إلى خصوبة أرض برقة بقوله: "... وبها يزرع من الزعفران⁽⁷⁾ شيء كثير، ..."⁽⁸⁾، ونستخلص مما ذكره ابن الأثير عن إقليم برقة -عندما دخل العرب إلى أفريقية سنة 442هـ / 1050م- أن العرب عندما حلوا ببرقة وما والاها وجدوا بلاداً كثيرة المرعى خالية من الأهل - ذلك - أن زناتة كانوا أهلها فأبادهم المعز لدين الله الفاطمي، فأقامت العرب بما واستوطنتها وعاشوا في أطراف البلاد، ..."⁽⁹⁾، وهو ما يؤكد أن ما قام به الفاطميون في الهجوم على إقليم برقة وإبادة أهلها قد أكمله بنو هلال وسليم من بعدهم، وبالتالي يكون الخراب الذي حل خلال هذه الفترة سببه الاثنان معا، الفاطميون والقبائل العربية".

كما أن المؤرخين يؤكدون ما ذكره بعض الرحالة عن جذب برقة وقفرها، وفي ذلك يقول المقرئ في حديثه عن حوادث سنة 694هـ / 1294م: "... وفيها قصر مد النيل، ... وأجدبت بلاد برقة

(1) أبو الفدا، تقديم البلدان، ص128، 147.

(2) البغدادي، مرصد الإطلاع، 1 / 129.

(3) المصدر نفسه: 1 / 30.

(4) المصدر السابق، 3 / 1382.

(5) القلقشندي، صبح الأعشى، 5 / 103.

(6) ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات، 7 / 42.

(7) الزعفران: نبات معروف جده الطري الحسن اللون، يجلو البصر ويمنع النوازل فيه، وينفع للغشاوة في العين = على الشطشاط، تاريخ الجراحة

في الطب العربي، 2 / 943.

(8) سراج الدين الوردی، خريدة العجائب وفريدة العجائب، مادة برقة.

(9) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، 8 / 55.

أيضا، وعم الغلاء والقحط ممالك الشرق والغرب والحجاز⁽¹⁾، وهو ما يتفق ما مع ذكره التجاني في حديثه عن جذب برقة وقحطها⁽²⁾، ويتفق مع كل من التجاني والمقريري ابن الفرات في حديثه عن برقة في حوادث سنة 694هـ / 1295م حيث قال: "... وفي هذه السنة أيضا قصر النيل بالديار المصرية، واشتد البلاء بالديار المصرية، واجدبت برقة وأعمالها وبلاد المغرب ونواحيها..."⁽³⁾.

وهذا المؤرخ ابن خلدون يحدثنا عن المجاعة التي حلت ببرقة فضرت بها وخربت أمصارها، وأصابهم منها شدة هلك فيها الناس، وفروا عنها وظهر اختلال أحوالها وفناء حاميتها...⁽⁴⁾.

ومن خلال ما سبق عرضه من نصوص وكتابات العديد من الجغرافيين والرحالة والمؤرخين نلاحظ أن إقليمي برقة وطرابلس قد مرّا بفترات ركود اقتصادي، فقد ساهمت الهجرات العربية ومن ثم المجاعة والجذب في انخيار الناحية الزراعية خاصة في الفترة التي سبقت منتصف القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي، ولكن مع بداية القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي نلاحظ أن القبائل العربية بدأت في الاستقرار والتمركز في المناطق الصالحة للزراعة، الأمر الذي ترتب عليه انتعاش في الحياة الاقتصادية بصفة عامة، والزراعة بصفة خاصة وهو ما لاحظناه من خلال النصوص السابقة من تنوع في المحاصيل والغلات الزراعية، تمثل في:-

أ- الحبوب: الذرة، الشعير، القمح.

ب- الأشجار المثمرة: النخيل، الزيتون، الأترج، الجوز، السفرجل.

ج- الفواكه: العنب - التوت، التين⁽⁵⁾، الرمان، الخوخ التفاح وغيرها.

د - الخضروات: بمختلف أنواعها.

ولم يقتصر إقليم برقة وطرابلس على إنتاج المحاصيل الزراعية السابقة، بل تعداها إلى إنتاج النباتات التي كانت تستعمل في الأغراض الطبية، حيث أشار ابن البيطار إلى وجود مجموعة منها تنمو في منطقتي برقة وطرابلس،

(1) المقريري، كتاب السلوك، 1 / 60/1.

(2) التجاني، الرحلة، ص191.

(3) ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات، 8 / 199.

(4) ابن خلدون، العبر، 7 / 44.

(5) التين: قال التجاني يسمونه أهل طرابلس بالكرم أو الكرمة، والكرمة في اللغة إما هي شجرة العنب، وقد جاء النهي عن تسميتها بذلك في الحديث الصحيح = الرحلة، ص246.

وكان من أهمها نبات يسميه البربر "أأكنار"⁽¹⁾، كما يوجد نبات اسمه "البلان"⁽²⁾ وكان يسميه أهل برقة "بالسيرق"، ونبات "الجنى الأحمر"⁽³⁾، ونبات "الجودر"⁽⁴⁾، ونبات البابونج⁽⁵⁾، ونبات "فريون"⁽⁶⁾، ونبات "قزاح"⁽⁷⁾ وشجرة "القطف البحري"⁽⁸⁾، و "سرارة الوادي"⁽⁹⁾ وبالإضافة إلى ما سبق ذكره فقد كانت التربة نفسها في برقة يتعالج بها الناس مع الزيت، بل كانت تصدر إلى الخارج حيث يذكر الإدريسي بهذا الصدد قوله: "... ويخرج منها التربة المنسوبة إليها، فينفع بها الناس ويتعالجون بها مع الزيت للجرى والحكة وداء الحية ...".⁽¹⁰⁾

أما إقليم طرابلس فكان ينتشر به نبات "البشمة"⁽¹¹⁾، ونبات "العشر"⁽¹²⁾،

(1) آكنار: ينمو في منطقة برقة. ويعرف عندهم باسم "البلغوة" كان يؤكل مطبوخا، وهو نبات جزري الشكل في رقة، دقيق له ساق مستديرة طولها ما بين ذراع أو أقل في أعلاها إكليل مستدير يشبه إكليل الشبث إلا أن زهره أبيض يخلفه بذر دقيق يشبه الصغير من بزر النبات المعروف في الأندلس باسم "البستنج" وهي الخلة بالديار المصرية = ابن البيطار، ضياء الدين أبي محمد عبد الله بن أحمد الأندلسي المالقي، الجامع لمفردات الأدوية والأغذية، دار الكتب العلمية، ط1 (بيروت، 1992م) 7/1.

(2) البلان: يسميه بعض الأعراب بالسيرق وهو عند العرب بالحجاز غيره = ابن البيطار، المصدر السابق، 155/1.

(3) الجنى الأحمر: وهو عبارة عن ثمرة القطف يطلق عليه أهل القيروان "الشمري" بضم الشين المعجم عند عرب برقة، كما يعرف بالقيقيان عند بعض أهل القدس = ابن البيطار، المصدر السابق، 1 / 237.

(4) الجودر: بالجيم مفتوحة والذال معجمة مفتوحة والراء مهملة وهو نوعين = ابن البيطار، المصدر السابق، 1 / 244.

(5) البابونج: الذي يعرف في أفريقية باسم "البابونج" = البابونج ثلاثة أصناف والفرق بينهما إنما هو في لون الزهر فقط له أغصان طولها نحو من شبر شبيه بأغصان التمش، وهو في قدر زهر السذاب ونبت في أماكن خشنة بالقرب من الطرق ويقع في الربيع = ابن البيطار، المصدر السابق، 1 / 101 على سمي، المرجع السابق، ص473.

(6) فريون: كان يكثر في جبل درنه ويسمي بالبربرية "تأكوت" = ابن البيطار، المصدر السابق، 3 / 216.

(7) قزاح: هذا النبات كان يغطي مساحات واسعة من صحراء منطقة برقة. وهو معروف بالقيروان لنوع من الرزبانج ترعاه الإبل = ابن البيطار، الجامع، 4 / 262.

(8) القطف البحري: كان ينتشر في الصحراء القريبة من مدينة برنيق في إقليم برقة = إحسان عباس، ليبيا في كتب التاريخ والسير، ص312.

(9) سرارة الوادي: وهو شجر كثير الشبوع وليس شيء من النباتات على اختلافه أكثر لبنا فيه، ويجني منه المغاير وأحدثها مغفور وهو صمغ حلو كربه الراححة يقال له سكر العشر. قال ابن البيطار في أدويته: ولم أر شيئا منه في بلاد الأندلس وأول ما وقفت عليه بظاهر طرابلس الغرب بالجهة الشرقية منها، ثم قال بعد ذلك رأيت بديار مصر بظاهر القاهرة = التجاني، الرحلة، ص314.

(10) الإدريسي، نزهة المشتاق، 1 / 311.

(11) البشمة، يطلق عليها في بلاد الحجاز "الحبة السوداء" وتستعمل في علاج العين ويؤتي بها من اليمن = ابن البيطار، الجامع، 1/131.

(12) العشر ذكره التجاني وهو شجر ناعم النبات شديد الخضرة يضرب إلى سواد ما، وهو يثبت صعدا، وله أوراق عظيمة ونور مشرق حسن المنظر كنوار الدفلي، وثمره أخضر كالأترج تملأ الواحدة يد حاملها وهي مملوءة بشيء يشبه القطن تسميه العرب الخرفع بضم الخاء المعجمة وسكون الراء وضم الفاء، وربما حشيت به المرافق والوسائد، وأخبرني من أثق به أنه رأي ثيابا صنعت منه = التجاني، الرحلة، ص312 كذلك: ابن البيطار، الجامع 3/168.

وشجر "الجميز"⁽¹⁾، ونبات "الرجس"⁽²⁾، وشجر العرعر وغيرها كثير مما يستفاد منه في مجالات مختلفة. ومما سبق يتضح أن إقليمي برقة وطرابلس - غالباً - وبشهادة الجغرافيين والرحالة، قد وهبهما الله موقعاً ممتازاً، حيث حظيت بمساحات واسعة من السهول والمرتفعات الجبلية والواحات الخصبة، هذا الخصب مرده إلى وفرة الثروة المائية بها، وخصوبة التربة، وعناية أهالي الإقليميين بالفلاحة، إلى جانب ذلك المناخ المعتدل، فهي ضمن المناطق الواقعة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، ولهذا كانت ملائمة لكثير من أنواع الزروع، ومن ثم اشتهرت بحاصلها المتنوعة والمختلفة الأصناف.

ثانياً: - مصادر المياه:-

لقد تتبع الجغرافيون والرحالة مختلف أنواع الموارد المائية في إقليمي برقة وطرابلس على اعتبارها محطات أساسية لقوافلهم باتجاه الشرق أو عند العودة باتجاه الغرب، وهي على العموم لا ترتقي إلى مصاف الموارد الكبيرة كالأنهار مثلاً، وإنما أتى اهتمامهم هذا نظراً لضعف المصادر المائية في المنطقة على وجه العموم، كما أن تباعد المسافات بين هذه المصادر، جعلهم يجتهدون في البحث عنها، وذلك بغية تذليل العقبات على الأركاب، وتفادياً لسقوطها تحت وطأة العطش من ناحية أخرى⁽³⁾.

وعلى اعتبار أن إقليمي برقة وطرابلس من الأقاليم الزراعية والرعية وهو ما يوحي بتعدد مصادر المياه فيها، وهو ما نستشفه من كتابات العديد من الجغرافيين والرحالة الذين مروا بهذه المنطقة خلال هذه الفترة، فمن أبرز مصادر المياه في هذين الإقليمين:

1- الأمطار:-

تشكل الأمطار إحدى الموارد المائية الهامة في برقة وطرابلس، وهي عادة ما تسقط بنسب متفاوتة، وتعتبر المناطق الساحلية أكثر وفرة من المناطق الجنوبية، وهي غالباً ما تكون شتوية، ونادراً ما تكون كافية وغزيرة، مما ينشأ عنها في بعض المواسم الجفاف والجذب.

(1) الجميز: تحدث عنه التجاني بقوله: "... وهو المخصوص نباته بأرض المشرق وهو شجر عظام على شكل التين وورقه أصغر من ورق التين وحمله كحمل التين إلا أنه ليس للواحدة منه علاقة، وإنما تنبت ملاصقة للعود وفي طعمه حلوة شديدة تصحبه غثاثة وأهل طرابلس يقولون أن بلدهم في حكم بلاد المشرق لنبات هذه الشجرة الواحدة به، وليس بخارج البلد في وقتنا هذا شجرة سواها ماعدا نخلات يسيره في الجهة الغربية = التجاني، الرحلة، ص246".

(2) نبات الرجس: ذكره التجاني فقال: "... وينبت بخارج البلد صنف من أصناف الرجس دقيق الورق لم أر أقوى منه فوحاء ولا أعطر روحا، ويذكر في التاريخ أن غابة طرابلس كانت متصلة إلى الجبل بأنواع الفواكهة على اختلافها، وتعدد أصنافها، فأفسدتها العرب وأجلت أهلها عنها...." = التجاني، الرحلة، ص246 - 247.

(3) محمد الحراري عبد السلام، ليبيا عبر كتابات الرحالين، ص174.

ومن مصادر المياه التي تعتمد غالباً على مياه الأمطار الأودية والتي تشكل أهمية كبيرة في المنطقة، نظراً لاستفادتها من موقعها بين الجبال وساحل البحر في غالب الأحيان، وقد تحدث العديد من الجغرافيين والرحالة عن الكثير من الأودية المنتشرة في برقة وطرابلس، فهذا البكري في مجمل حديثه عن طرابلس يقول: "...ولمدينة أطرابلس فحص يسمى سوفجين يصاب فيه بعض السنين للحبة مائة حبة، وهم يقولون فحص سوفجين يصيب سنة في سنين..."⁽¹⁾، كما وصف وادي مخيل بقوله: "... وهو راخ السعر كثير الخير، بينه وبين أجدابية خمس مراحل.." ⁽²⁾.

وأعطى ياقوت الحموي وصفاً لإقليم برقة يدل على كثرة الأودية فيه فقال: "... وأهلها يشربون من ماء السماء يجري في أودية..."⁽³⁾، وذكر العبدري أثناء مروره بإقليم برقة وحديثه عن حصونها على أن بما فحصاً متسعاً، فيه مواجل كثيرة لماء المطر، قلّ ما تنضب لكثرتها..."⁽⁴⁾، وهو ما يدل على أن الاعتماد الأساسي لأهالي برقة في شربهم وزراعتهم على مياه الأمطار التي تتجمع في الأودية. ويقدم التجاني وصفاً دقيقاً لوادي الرمل⁽⁵⁾، وهو أحد الأودية الكبيرة في إقليم طرابلس، فيقول عنه: "... وهو واد متسع عذب الماء لا ينقطع ماؤه في شتاء ولا في صيف، ومبدؤه من الجبل قاطعاً إلى البحر، لا بد لكل مشرق يجعل الجبل يمينه، أو مغرب يجعله يسرته من قطعه، وأصل مائه من عيون تنبع في أثنائه، تبتدئ من مسافة قريبة من الجبل فتجري قليلاً ثم تنقطع ثم تبتدئ بعدها عيون أخرى، فينتهي ماؤها إلى البحر ولا يعم الماء جميع الوادي إلا في وقت الأمطار عند نزول السيول من الجبل..."⁽⁶⁾.

(1) ذكره التجاني وقال هو بالسنين المهمل المضمومة وإلفاء والجيم المشددة، ونقل ما ذكره البكري أيضاً الحميري في كتابه: الروض المعطار = البكري، المسالك والممالك، 2 / 655، التجاني، الرحلة التجانية، ص 259، الحميري، الروض المعطار، ص 390.

(2) البكري، المسالك والممالك، 2 / 649، كذلك: ياقوت الحموي، معجم البلدان، 5 / 73، وذكره الصابوني على وزن "مريض" أو "مسيل" = كتاب تكملة إكمال الإكمال في الأنساب و الأسماء والألقاب، هامش، ص 11، وذكره ابن دقماق بضم الميم وكسر الحاء المعجمة وسكون آخر الحروف بعدها لأم، وهو عبارة عن حصن بالقرب من مدينة برقة = ابن دقماق، نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، تحقيق: سمير طبارة، المكتبة العصرية (بيروت، 1999م) ص 123، كذلك: ياقوت الحموي، معجم البلدان، 5 / 73.

(3) ياقوت الحموي، المصدر السابق، 1 / 289.

(4) العبدري، الرحلة المغربية، ص 235.

(5) ذكره العياشي في رحلته بأنه واد مخصب من أعلاه، فيه مزارع، تخرج إليه ماشية أهل طرابلس أيام الربيع وربما أخرج الحجاج إليه أبلهم مع رعائهم إن طالت أقامتهم بطرابلس = العياشي، الرحلة العياشية أو المسماة ماء الموائد، ص 90.

(6) التجاني، الرحلة، ص 310.

كما حدثنا التجاني أثناء مروره بأرض مسلاته⁽¹⁾ عن العديد من الأودية الموجودة هناك بين جبال وعرة، وذكر وادي عين فأرة بأنه حسن المنظر شارح للنفس، ولكنه لا يجري فيه الماء في أعلاه إلا في وقت الأمطار⁽²⁾، كما وصف ابن سعيد المغربي -أثناء مروره بإقليم برقة- وإد سماه "نهر درنا" ومرد كلامه كون هذا الوادي مياهه كثيرة ولا تتوقف، فقال: "... ومن جبالها ينزل نهر درنا وينصب في البحر المالح، ولم أر في جميع بلاد برقة نهر غيره، ..." ⁽³⁾، وينقل أبو الفدا ما كتبه ابن سعيد بقوله: "... وليس في بلاد برقة نهر واحد يقال له نهر درنا..." ⁽⁴⁾.

ويتحدث العديد من الباحثين الحديثي العهد عن هذا النهر كما ذكره ابن سعيد⁽⁵⁾، فبعضهم يسميه واد⁽⁶⁾، وهو الآن موجود بمدينة درنة وعبارة عن شلال يشق المدينة في مجراه من الجنوب إلى الشمال، وقد وصفه الزاوي في مجمل حديثه عن مدينة درنة بقوله: "... ويشققها نهر يجري ماؤه دائما من الجنوب إلى الشمال، ويبتدئ جريانه من وادي الضحاك بقرب الظهر الأحمر، وكلما انحدر إلى الشمال أضيفت إليه عيون أخرى إلى أن يمر بعين أبو منصور قرب المدينة⁽⁷⁾، وهي أكبر العيون التي تمد هذا النهر، ويوزع ماؤه على بساتين وبيوت المدينة، وقد اشتهرت أراضي برقة بالخصب منذ القدم"⁽⁸⁾.

2- المياه الجوفية، وتشمل الآبار والعيون:-

فالآبار مصدر من مصادر المياه الأساسية عند سكان إقليمي برقة وطرابلس، وقد اعتمدوا عليها في الشرب، وفي ري مزرعاتهم، وهي تكثر في مناطق متفرقة وعديدة من البلاد الساحلية خاصة منها

(1) مسلاته: كلمة بربرية كانت تطلق على قبيلة من قبائل البربر كانت تسمى "سلاته" وحرفت، وسلاته هو أحد أبناء هواره الذي نسبت إليه قبيلة هواره = الطاهر الزاوي، معجم البلدان الليبية، ص315.

(2) التجاني، الرحلة، ص315.

(3) ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص146، ابن سعيد، بسط الأرض، ص80.

(4) أبو الفدا، تقويم البلدان، ص149.

(5) منهم على سبيل المثال لا الحصر:

- الطاهر الزاوي، تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص33.

- الطاهر الزاوي، معجم البلدان الليبية، ص130.

- عبد الله كامل موسى عبده، دراسات في الحضارة والآثار الإسلامية في ليبيا، ص29.

(6) محمد الحراري عبد السلام، ليبيا عبر كتابات الرحالة المغاربة، ص175، الطاهر الزاوي، معجم البلدان الليبية، ص233.

(7) عين أبو منصور: عين بوادي درنة في الجبل الأخضر، وأخذت مياهها في قنوات إلى مدينة درنة لتوزع على الحقول، ويقدر الماء الذي يصل منها إلى درنة بنحو عشرين ألف متر مكعب في اليوم = الزاوي، معجم البلدان الليبية، ص233.

(8) الطاهر الزاوي، تاريخ الفتح، ص33، وكتابه: معجم البلدان الليبية، ص130.

الغربية والجنوبية ومناطق الواحات، إلا أنها في غالب الأحيان تكون بعيدة عن السطح خصوصاً في المناطق التي تقع إلى الجنوب من برقة وطرابلس، وذلك لندرة الأمطار فيها.

وقد تعدد ذكر الآبار في هذه المناطق ومدنّها، وهو ما نستشفه من نصوص وكتابات العديد من الجغرافيين والرحالة الذين مروا بهذه الأقاليم⁽¹⁾، فهذا البكري يحدثنا عن وجود آبار عذبة في مدينة سرت⁽²⁾، ويذكر أن قصور حسان عبارة عن: "... بئر شريب سماها بهذا الاسم حسان بن النعمان ... فبنى هناك قصرين، وهما اليوم خربان، حولهما ماء زعاف برز في بئرين،..."⁽³⁾، كما ذكر بئراً موجوداً في مدينة طرابلس عرف باسم بئر أبي الكنود، بقوله: "... وداخل مدينتها بئر يعرف ببئر أبي الكنود وهم يعيرون به، ويحرق من شرب منه، فيقال للرجل إذا أتى بما يلام عليه: لا يعتب عليك لأنك شربت من بئر أبي الكنود،..."⁽⁴⁾، وكان الأهالي ينفرون الشارب منها، ولا ينتفع أحد منهم بمياهها، وهي تقع داخل أسوار المدينة القديمة، وقد اندثر أثرها، وخفي موضعها، غير أن التجاني عاين موقعها أثناء نزوله بطرابلس الغرب، وشاهدها، وأفاد أنها توجد بالمدينة، وأن أهل البلد يوردون عليها بهائمهم، وبعضهم يشرب من مائها ولا يتحرج في ذلك مع علمه بما يسند إليها من مساوئ وعيوب⁽⁵⁾، ويصف البكري بئراً في طرابلس عرف باسم "القبة" بأنه أعذب آبارها⁽⁶⁾، كما يذكر أن بجبل نفوسه آباراً كثيرة⁽⁷⁾، ويصف الطريق التي بين جبل نفوسه و مدينة زويله بكثرة آبارها⁽⁸⁾، ويحدثنا صاحب كتاب الاستبصار عن آبار أجدايبا فيقول: "... وهي مدينة كبيرة في صحراء صفاء، وآبارها منقورة في ذلك الصفا..."

(1) ومن الذين تحدثوا عن وجود الآبار في برقة وطرابلس خلال القرنين الثالث والرابع الهجريين: اليعقوبي، فتوح البلدان، ص 181، كذلك: ابن حوفل، صورة الأرض، ص 69 - 71، المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ص 224، ابن رسته، الأعلام النفيسة، ص 343، المنجم، أكام المرجان، ص 26.

(2) البكري، المسالك والممالك، 651/2.

(3) البكري، المصدر نفسه، 653/2، ويصف الإدريسي هذين البئرين بأخما قريبتين القعر ومنهما يتزود بالماء المار بها والجائي ويأخذ منهما ما يكفيه لشربه في مسافة سفره = نزهة المشتاق، 1 / 314.

(4) البكري، المصدر السابق، 654 / 2، كذلك ورد ذكره عند كل من: صاحب كتاب الاستبصار، ص 110، ياقوت الحموي، معجم البلدان، 25 / 4، القزويني، آثار البلاد، ص 408، التجاني، الرحلة، ص 254، الحميري، الروض المعطار، ص 354.

(5) التجاني، الرحلة، ص 259، كذلك: مفتاح محمد عبد الجليل، وصف طرابلس الغرب في الرحلة التجانية، ص 542.

(6) البكري، المسالك والممالك، 2 / 655.

(7) المصدر نفسه: 2 / 656.

(8) المصدر السابق: 2 / 656، كذلك: ياقوت الحموي، معجم البلدان، 5 / 110.

(1)، ويشير الإدريسي في حديثه عن مدن بركة وطرابلس إلى وجود العديد من الآبار في مدينة جرمة وتساوة، ويذكر أن مدينة سرت آبارها قليلة، ويصف جزائر ودان بأنها نخل متصل، ولها آبار كثيرة يزرعون بها الذرة، كما يحدثنا عن مدينة زويلة ابن خطاب ويقول: إن شرب أهلها من آبار عذبة⁽²⁾، ويقول ياقوت الحموي بأن أرض بركة "... لها آبار يرتفق بها الناس..."⁽³⁾، وينقل عن البكري أن سرت آبارها عذبة⁽⁴⁾.

أما الرحالة العبدري فيحدثنا أيضاً عن وجود العديد من الآبار في إقليم بركة، ويصفها بأنها آبار عميقة مارأى أبعد منها، وقل ما يتأتى الاستقاء منها إلا بحمال موصولة⁽⁵⁾.

و يحدثنا التجاني عن وجود آبار في قرية لول بقوله: "... وبها آبار معينة، إلا أن ماءها شريب وليس العذب منها إلا ما بين التل والبحر،..."⁽⁶⁾، كما ذكر أثناء خروجه من مدينة طرابلس متجها نحو الشرق بئراً عرف باسم بئر بنوت⁽⁷⁾، وهي بئر معينة عذبة بسفح جبل عال، ومنها يتندى المشرق،..."⁽⁸⁾.

أما عن الواحات الجنوبية فيذكر أبو الفدا أن بودان أباراً كثيرة، يزرعون بها الذرة⁽⁹⁾، وذكر أن أهالي مدينة زويلة يعتمدون في زرعهم على مياه الآبار⁽¹⁰⁾، وبالتالي فإن الآبار منتشرة في الجنوب، كما أنها منتشرة في الشمال، وهي المعتمد الأساسي للسكان في شربهم وزرعهم وحياتهم.

أما العيون فتعتبر أيضاً من الموارد المائية الأساسية في المنطقة، وأكثرها نفعا للزراعة أيضاً، كما أن أهالي العديد من المدن استفادوا منها في سقي حيواناتهم، واستخدموا ما هو موجود منها في المدن لشربهم واستعمالهم اليومي.

(1) مجهول، الاستبصار، ص144.

(2) الإدريسي، نزهة المشتاق، 1 / 112، 298، 312، 313، الحميري، الروض المعطار، ص282.

(3) ياقوت الحموي، معجم البلدان، 1 / 289.

(4) المصدر نفسه، 3 / 206.

(5) العبدري، الرحلة، ص235.

(6) التجاني، الرحلة، ص211.

(7) بئر بنوت، بضم الباء المعتلة وبالنون والفاء الصحيحة المثناة.

(8) التجاني، الرحلة، ص317.

(9) أبو الفدا، تقويم البلدان، ص128.

(10) المصدر نفسه: ص147.

وقد تُوّه وتحديث العديد من الجغرافيين والرحالة على كثرة العيون في برقة وطرابلس، فذكر البكري أن أجدايا بما عين ماء عذبه⁽¹⁾، ويصف مدينة هل بأنها مدينة عامرة كثيرة النخل وعيون الماء⁽²⁾، ويذكر أن مدينة زهلي لها نخل كثير وعين ماء نزة⁽³⁾، ويحدثنا العديد من الجغرافيين والرحالة وحتى المؤرخين عن قصة عقبة بن نافع عندما نفذ منه الماء وهو عائد من فتوحاته من إقليم فزان، فأقام بمكان اسمه اليوم "عين ماء الفرس" فنجد ماؤهم وأصابعهم عطش كاد يهلكهم، فصلى عقبة بأصحابه ركعتين ودعا الله عز وجل، فجعل فرس عقبة يبحث بيديه في الأرض حتى انكشف عن صفاة، فانفجر منها الماء، فنأدى عقبة في الناس أن احتفروا، فاحتفروا ماءً معيناً طيباً فسمي لذلك ماء الفرس...⁽⁴⁾، وهي لازالت إلى الآن تعرف بعين ماء الفرس.

ويحدثنا كل من ياقوت الحموي والقزويني عن وجود عين قديمة في مدينة غدامس ويصفها وصفاً دقيقاً بالقول: "... وفي وسطها عين أزلية وعليها أثر بنيان عجيب رومي يفيض الماء فيها، ويقسمه أهل البلدة بأقسام معلومة لا يقدر أحد أن يأخذ أكثر من حقه، وعليه يزرعون..."⁽⁵⁾، وهو ما يوحي أن هناك العديد من العيون، وهي موجودة قبل دخول المسلمين إلى هذه المنطقة، ويذكر العبدري أثناء خروجه من أجدايا أنه شاهد عيناً عرفت باسم "عين إقنان"، كما أنه يصف طريقه الذي سلكه ماراً ببرقة نحو مصر بأنها منطقة عطشانه قليلة الماء والكلا، إلا أنه ذكر عيناً سميت "عين أبي شمال" وقال "... وهي عين غزيرة عذبة"⁽⁶⁾. ويصف التجاني كثرة العيون بوادي الرمل فيقول: "... وأصل مائه من عيون تنبع في أثنائه، تبتدئ من مسافة قريبة من الجبل فتجري قليلاً ثم تنقطع ثم تبتدئ بعدها عيون أخرى، فينتهي ماؤها إلى

(1) البكري، المسالك والممالك، 2 / 650، ونقل عن ذلك كل من: صاحب كتاب الاستبصار، ص 144، ياقوت الحموي، معجم البلدان، 1 / 100، الحميري، الروض المعطار، ص 12.

(2) مدينة هل تقع على الطريق بين ودان وسبهي، ومنها إلى ودان مسافة يوم واحد = البكري، المصدر السابق، 2 / 658.

(3) البكري، المسالك والممالك، 2 / 658.

(4) كان عقبة يلقب بالمستجاب لأنه قلما دعا في نيل شيء إلا استجيب = البكري، المصدر السابق، 2 / 661، الاستبصار، ص 147، ياقوت الحموي، معجم البلدان، 5 / 43، القزويني، آثار البلاد، ص 59، الحميري، الروض المعطار، ص 296، عبد الرحمن بن عبد الحكم، فتوح مصر وأخبارها، ص 195، ابن عبد الحكم، فتوح مصر وأفريقية، ص 195، ابن أبي دينار، المونس، ص 27.

(5) ذكرها الزاوي بقوله بأنها عين ماء تقع في مدينة غدامس يشرب منها سكان الواحة، ويسقون منها مزرعاتهم وتتجمع مياهها في حوض طوله 25م وعرضه 15م وعمقه متر واحد = معجم البلدان الليبية، ص 235، ياقوت الحموي، معجم البلدان، 4 / 184، القزويني، آثار البلاد، ص 57، كذلك نقل عنهم: أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 147.

(6) العبدري، الرحلة، ص 235 - 236.

البحر ولا يعم الماء جميع الوادي إلا في وقت الأمطار عند نزول السيول من الجبل"،⁽¹⁾ وهو نص صريح يدل على كثرة العيون في إقليم طرابلس، ويستمر التجاني في حديثه عن العيون عند انتقاله من وادي الرمل نحو الشرق، ويصف العين المعروفة باسم "عين تامدنت"⁽²⁾ فيقول: "وهي عين متسعة عذبة الماء يتضمنها واد متسع يشتمل على غابات مشتبكة..."⁽³⁾، ومحدثنا عند دخوله قرية "بشرى" وعن وجود عين تعرف باسم "عين تاورغا"⁽⁴⁾، كما وصف التجاني مكاناً قريباً من موضع المصلى القديم للمدينة يعرف باسم "العيون" وذكر أنه سمي بذلك لأن هنالك عيون ماء عذبة وهو بشاطئ البحر وماؤها ينصرف إليه⁽⁵⁾، ويستمر التجاني في موضع آخر من رحلته في الحديث عن العيون في إقليم طرابلس فيقول: "... ونزلنا بالعين المعروفة بعين فأرة"⁽⁶⁾، وهذه العين أعذب من الأولى وهي بواد حسن المنظر شارح النفس، وقبلها عين أخرى جارية إلا أنها أضعف جريا منها، يجري ماؤها فينتهي إلى هذه العين وتجتمع منه، بركة ماء متسعة قد ظللتها غابة مشتبكة من شجر العرعر، والصرو⁽⁷⁾، والخروع⁽⁸⁾ وغير ذلك، ثم يجري الماء من تلك

(1) التجاني، الرحلة، ص310.

(2) عين تامدنت: ببناء المعجمة المثناة وبكسر الميم وكسر الدال المهملة وسكون النون = التجاني، الرحلة، ص 312.

(3) المصدر نفسه: ص312.

(4) عين تاورغا: توجد حالياً عين شرقي مدينة مصراته بمسافة 40 كم وهي ليست التي ذكرها التجاني وذكرها العديد من الجغرافيين والرحالة كنقطة التقاء تجارة القوافل بين الشمال والجنوب.

(5) بين الباحث مفتاح عبد الجليل أن هذه العيون تنبع من مصلي البلد القديم ويسمي "بسواني العيون" وبجواره بئر، وهو الموضع المعروف حالياً بسوق الثلاثاء القديم = مفتاح عبد الجليل، وصف طرابلس الغرب في الرحلة التجانية، ص 542، كذلك: سالم سالم شلاي، عناوين على نواصي المحروسة طرابلس القديمة، منشورات مكتبة الفرجاني (طرابلس، 1994م) ط1، ص204، إدريس حمودة، إمارة بني تابت، ص 314-315.

(6) عين فأرة: عين ماء شرقي وادي الرمل في مساحته قصر الجفارة من الجهة الشمالية بنحو 3 كم، ويقربها عين أخرى، ويجتمع ماؤها في مستنقع يجري إلى البحر تسمى "عين وادي المسيد" وقصر الجفارة بناءه المكي وكان يسمى قصر فأرة = الظاهر الراوي، معجم البلدان الليبية، ص 234 - 235.

(7) الصرو: أو السرو، شجر طويل لا يتساقط ورقة وجوزه قابض وفيه تحليل ونافع للفتق والأورام ضمادا = على الشطشاط، تاريخ الجراحة في الطب العربي، 2 / 927، كذلك: على سمي، دراسة وتحقيق المقالة الثلاثين من كتاب التصريف، ص486.

(8) الخروع: ينمو شجر الخروع سريعاً وكان يزرع في الوجه القبلي = وليم نظير، الزراعة في مصر الإسلامية من عهد الخلفاء الراشدين إلى عهد الثورة، صادر عن مراقبة التحرير والنشر والمكتبات (القاهرة، 1969م) ص 202.

البركة جريا قويا ينتهي إلى البحر ولا يجري الماء في أعلى هذا الوادي إلا في وقت الأمطار، ... ونزلنا بالعين المعروفة بعين ودرس (1).... " (2).

وإذا ما تتبعنا ما ذكره المؤرخون عن مصادر المياه لوجدنا أن معلوماتهم شحيحة مقارنة بما ذكره الجغرافيون والرحالة، ويبدو أن اهتمام المؤرخين بالجانب السياسي والصراعات والثورات داخل هذه الأقاليم جعلهم يولون اهتمامهم به أكثر من أي شئ آخر، فهذا البغدادي ينقل حرفياً ما ذكره ياقوت الحموي في حديثه عن آبار أجدابيا⁽³⁾، وينقل حرفياً عن الجغرافيين السابقين الفلقشندي، إذ يقول عن مدينة غدامس: وهي مدينة جليلة عامرة في وسطها عين أزلية عليها أثر بنيان رومي عجيب فيفيض منه الماء⁽⁴⁾، أما المقرئ فيصف ودان بأنها جزيرة نخل وعمارات وبها يزرع الذرة على الآبار⁽⁵⁾، ويحدثنا عن مدينتي جرمة وتساوة بأنها بلدان من أرض فزان، بينهما مرحلة، بمما نخيل ويزرعون الذرة والشعير، ويسقونها من الآبار⁽⁶⁾، ويطلعنا ابن خلدون بنص مفاده أن المعز الفاطمي عندما اعتزم المسير إلى مصر، وأخرج جوهر⁽⁷⁾ الكاتب إلى المغرب لحشد كتامة، وأوعز إلى أعمال برقة لحفر الآبار في طريقها -وذلك سنة خمس وخمسين-⁽⁸⁾، وهو ما يؤكد أن جل الآبار الموجودة في الطريق فيما بين المغرب والمشرق خاصة في المنطقة المحصورة بين مصر وإقليم برقة، قد تم حفرها زمن انتقال الفاطميين إلى مصر⁽⁹⁾.

(1) عين ودرس: بكسر الواو وسكون الذال المهملة وكسر الراء، وردت في معجم البلدان الليبية بعين ودرس وهي عين ماء شرقي قصر خيار بمرحلة، أي بنحو 50 كم، وهي قرب قرية غنيمة بمسلاته، ووردت: كلمة بربرية، والبربر يلحقون بها تاء ساكنة فيقولون ودرست، وتوجد الآن عين بوادي قريم شرقي قصر خيار ولا يستبعد أن تكون عين ودرست = الطاهر الزاوي، معجم البلدان الليبية، ص 237.

(2) التجاني، الرحلة، ص 315 - 316.

(3) البغدادي، مرصد الإطلاع، 1 / 30.

(4) الفلقشندي، صبح الأعشى، 5 / 103.

(5) المقرئ، جني الأزهار، ص 75.

(6) المصدر نفسه: ص 73.

(7) هو جوهر بن عبد الله الرومي أبو الحسن، القائد باني مدينة القاهرة، والجامع الأزهر، كان من موالى المعز العبيدي، وستيره من القيروان إلى مصر، بعد موت كافور الإخشيدى فدخلها سنة 358هـ وأرسل الجيوش لفتح بلاد الشام، ومكث بها حاكماً مطلقاً إلى أن قدم مولاه المعز سنة 362هـ فحل محله المعز، وصار هو من عظماء القواد في دولته وما بعدها، إلى أن توفى بالقاهرة سنة 381هـ / 992م = خير الدين الزركلي، الإعلام، 2 / 146، على إبراهيم حسن، تاريخ جوهر الصقلي، مطبعة حجازي (القاهرة، 1933).

(8) ابن خلدون، العبر، 4 / 48.

(9) ظهرت دولة الفاطميين في أفريقية سنة 297هـ / 959م ثم انتقلت إلى مصر أيام المعز لدين الله الفاطمي وكان ذلك سنة 362هـ / 972م.

ومما سبق عرضه من نصوص وكتابات للجغرافيين والرحالة وكذلك المؤرخين يظهر بوضوح أن أهالي إقليمي برقة وطرابلس كان اعتمادهم الأساسي في الزراعة على مياه الأمطار التي منها تسيل الوديان، وتساهم بالتالي في زيادة المنتوج، ومن الأمطار تنبع مصادر أخرى لا تقل أهمية عنها كالأبار والعيون التي -بطبيعة الحال- يزيد منسوبها كلما كانت مياه الأمطار أغزر وأوفر، ومن هذه المصادر المائية بدأت موارد الاقتصاد تزدهر تدريجياً، وهو ما صاحبه تطور في وسائل وطرق الري في الأراضي الزراعية، وعلي هذا الأساس يمكن أن نقسم الزراعة في إقليمي برقة وطرابلس وفق المصادر المنتشرة في الإقليميين إلى: زراعة بعلية وهي تعتمد على مياه الأمطار، وزراعة مروية وهي التي تنتشر بالقرب من الأودية الجارية أو المناطق التي توجد بها العيون أو تكثر بها الآبار⁽¹⁾.

ثالثاً: - طرق ووسائل الري:-

بالنظر إلى تنوع المصادر المائية في إقليمي برقة وطرابلس خاصة وأن الأمطار تسقط - غالباً - بغزارة في فصل الشتاء، الأمر الذي ترتب عليه فيضانات خاصة في مناطق الأودية الكبيرة كوادي سوف الجين، ووادي الرمل مثلاً، وهو ما حدى بسكان هذه المناطق إلى الاهتمام باستحداث طرق عدة لري الأراضي الزراعية والاستفادة من مياه الأمطار بدلاً من أن تذهب هدراً في البحر. وقد تعددت طرق حفظ المياه، والتي منها:-

1- المواجل:-

وهي عبارة عن خزانات مياه أرضية بحكم بنائها في جوف الأرض بحيث لا يتسرب منها الماء لاستعماله في الشرب والطهي وأحياناً سقي بعض المزروعات التي عادة ما تزرع في الأراضي المجاورة للمنازل، ولازالت هذه الطريقة مستعملة إلى يومنا هذا⁽²⁾، ويبدو أن المواجل كانت موجودة منذ العهود الإسلامية الأولى، وهو ما شاهده التجاني أثناء إقامته في طرابلس، إذ يحدثنا عن وجود ماجل تم بناؤه داخل جامع طرابلس الأعظم من الجهة الجوفية والقبعة التي عليه، ويذكر أن بناءه قد تم على يد شكر - المعروف بالصقلي-، وكان ذلك سنة تسع وستين ومائتين و269هـ / 882م⁽³⁾.

(1) صالح السباني، ليبيا أثناء العهد الموحد والدولة الحفصية، ص402 كذلك: محمد ناجي، طرابلس الغرب، ص24 - 25.

(2) إدريس حمودة، إمارة بني تائب، هامش، ص314.

(3) نقل الحشائشي ما ذكره التجاني حرفياً ولكنه أخطأ في كتابه تاريخ البناء وقال أنه سنة 369هـ / 902م = الحشائشي، الرحلة، ص41.

وتشير العديد من كتابات الجغرافيين والرحالة إلى أن المواجل كانت منتشرة في العديد من المدن في برقة وطرابلس، فالإدريسي في مجمل حديثه عن مدينة سرت يقول: بأن مياهما من المطر في المواجل⁽¹⁾، وذكر بأن ليس بأجدابية ولا ببرقة ماء جار، وإنما مياهم من المواجل⁽²⁾، كما يحدثنا عن وجود المواجل بمدينة أوجلة بقوله: "... ومياها قليلة وشرب أهلها من المواجل"⁽³⁾، ويصف العبدري كثرة المواجل في إقليم برقة عند مروره بحصن سوسية بقوله: "... وهي حصن خرب على شرف مرتفع ينظر على فحس متسع فيه مواجل كثيرة لماء المطر قل ما ينضب لكثرتها وعظمتها..."⁽⁴⁾.

وغالبا ما يتم بناء المواجل بجوار المنازل، وذلك حتى تتم الاستفادة من مياه الأمطار الشتوية عندما تسقط على الأسقف، ومن ثم يتم ادخارها إلى فصول الجفاف للاستفادة منها في الحياة اليومية.

2- السواني:

جمع سانية، قال ابن منظور: والسانية الناضحة وهي الناقة التي يستقى عليها، وفي المثل: سير السواني سفر لا ينقطع، والسانية ما يسقى عليه الزرع والحيوان من يعير وغيره⁽⁵⁾.

والسانية: عبارة عن آلة مصنوعة من الخشب توضع فوق الآبار، ويتم استغلال بعض الحيوانات كالماشية أو الجمال، لأجل جرها بالحبال حتى يتم إخراج الماء من البئر ثم تصريفه وتوزيعه بشكل قنوات صغيرة حتى يصل إلى الأراضي الزراعية المجاورة لها، وأطلقها الطرابلسيون في لغتهم الدراجة على البستان⁽⁶⁾، وهو عبارة عن قطع من الأرض تحت الري الدائم، وهي عادة ما توجد في المناطق الساحلية حيث وفرة المياه⁽⁷⁾.

وقد انتشرت هذه السواني في العديد من مدن برقة وطرابلس، وهي عادة ما تكون مجاورة للآبار والعيون، وقد تحدث عنها الإدريسي في مجمل حديثه عن مدينة أجدابية، وقال بأن مياهما من المواجل والسواني⁽⁸⁾، كما تطرق إلى ذكرها في وصفه للطريق المؤدي إلى سرت، فقال: "... ومن قصر العبادي

(1) الإدريسي، نزهة المشتاق، 1 / 298.

(2) المصدر نفسه: 1 / 311 ونقل عنه حرقيا الحميري، الروض المعطار، ص 12.

(3) الإدريسي، المصدر السابق، 1 / 312، الحميري، الروض المعطار، ص 64.

(4) العبدري، الرحلة، ص 235.

(5) ابن منظور، لسان العرب، مادة "سنا".

(6) الأنصاري، المنهل العذب، 2 / 43.

(7) على منصور إبراهيم، الرحالة العرب ودورهم في كتابة تاريخ ليبيا السياسي والاقتصادي في القرنين السابع عشر والثامن عشر، ص 360.

(8) الإدريسي، نزهة المشتاق، 1 / 311، الحميري، الروض المعطار، ص 12.

إلى اليهودية أربعة وثلاثون ميلاً، وهو قصر عامر وفيه زراعات على مياه تستخرج بالسواني من آبار ...⁽¹⁾، وذكر التجاني السواني أثناء مروره بقرية لول، وقال: إنه شاهدها في موضع يعرف باسم "تليل"⁽²⁾. مما يعني أن السواني كانت منتشرة بحسب وجود الآبار التي يتم استغلالها في الزراعة على وجه الخصوص.

3- الجباب:

وهي عبارة عن حفر مربعة الشكل في الغالب ولا يزيد عمقها عن متر أو مترين، وهي عادة ما تكون مجاورة للوديان والعيون، وقد استخدمت منذ القدم للاستفادة من المياه التي تفيض منها، وذكر البكري في حديثه عن وادي مخيل أنه حواليه جباب ماء وبرك⁽³⁾، كما تحدث عن وجود أعداد كثيرة منها في مدينة سرت، وفي منطقة قصور حسان، كما ذكر أن مدينة برقة بها جباب يقال إن عددها ثلاثمائة وستون⁽⁴⁾، ويحدثنا الإدريسي عن وجود العديد من الجباب وهو في طريقه إلى سرت وفي ذلك قال: "... ومن اليهودية إلى قصر العطش أربعة وثلاثون ميلاً، وهو قصر عامر فيه زراعات وفيه ثلاث جباب"⁽⁵⁾، وهو ما يؤكد ياقوت الحموي في حديثه عن وادي مخيل ومدينة سرت⁽⁶⁾، ويقول التجاني أثناء مروره بقرية تياغمرت: "... وشربهم - يقصد أرض مسلاتة - من أجباب مملوكة لهم تملؤها السيول المنحدرة من تلك الجبال في أوقات الأمطار، ..." ⁽⁷⁾، كما يصف أبو الفدا مدينة طرابلس بأنها ليس بها ماء جار بل بها جباب وعليها سواق⁽⁸⁾، وهو ما يؤكد أن الجباب كثيرة ومتعددة خاصة في المناطق الساحلية التي تسقط فيها الأمطار بغزارة، ليتم استغلالها في حفظ المياه ثم تصريفها لغرض الشرب والزراعة.

(1) الإدريسي، المصدر السابق، 314/1.

(2) التجاني، الرحلة، ص 211.

(3) البكري، المسالك والممالك، 2 / 649.

(4) المصدر نفسه، 2 / 650 - 653.

(5) الإدريسي، المصدر السابق، 1 / 314.

(6) ياقوت الحموي، معجم البلدان، 3 / 206، 5 / 73.

(7) التجاني، الرحلة، ص 315.

(8) أبو الفدا، تقويم البلدان، ص 147، وهو ما نقله حرفياً: القلقشندي، صبح الأعشى، 5 / 100.

4 - البرك:-

قال ابن منظور: وهي كالحوض، والجمع البرك، ومفردا بركة، يقال سميت بذلك لإقامة الماء فيها، والبركة مستنقع الماء، وهي شبه حوض يحفر في الأرض لا يجعل له أعضاء فوق صعيد الأرض، وقال: ربّ بركة تكون ألف ذراع وأقل وأكثر⁽¹⁾.

وقد انتشرت البرك في مدن مختلفة من بركة وطرابلس، وقد ذكرها البكري في حديثه عن وادي مخيل⁽²⁾، وهو ما يوحي بوجودها مجاورة للوديان، ويقول ياقوت الحموي عن أرض بركة بأن "... أهلها يشربون من ماء السماء يجري في أودية ويفيض إلى برك بناها لهم الملوك..."⁽³⁾، وهو ما يدل على أن البرك كانت لها أهميتها بحكم استغلالها في مختلف جوانب الحياة الزراعية.

ومما سبق يتبين أن طرق الري كانت متعددة ومتنوعة، ساهم الأهالي في تطورها، وقد سعوا لإيجاد وسائل لري هذه المياه الموجودة في المواجل والسواني والبرك والجباب بشتى الطرق، وهو ما يؤكد ابن سعيد في مجمل حديثه عن مدينة أجدابية، فقال: "... وفيها صنع المعز الفاطمي صهاريج الماء"⁽⁴⁾، من المطر حين عزم على فتح مصر من القيروان..."⁽⁵⁾، كما ذكر الإدريسي آلة استخدمها سكان بركة سموها "أنجفة" وذكر أنها كانت تسمى في بلاد المغرب "بالخطارة"⁽⁶⁾، وغيرها من الآلات البدائية المعروفة في ذلك الوقت "كالساقية" التي ذكرها أبو الفدا في مجمل حديثه عن طرابلس بقوله: وبها جباب وعليها سواق⁽⁷⁾، وهي حسب اعتقادي السواني نفسها.

(1) ابن منظور، أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفيقي المصري، لسان العرب، دار صادر، ط1 (بيروت، 2000م) 2 / 72.

(2) البكري، المسالك والممالك، 2 / 649، ياقوت الحموي، معجم البلدان، 5 / 73.

(3) ياقوت الحموي، المصدر السابق، 1 / 289.

(4) الصهاريج: صهرج، صهرج، واحد الصهاريج، وهي كالخياض يجتمع فيها الماء، والصهرج: مصنعة يجتمع فيها الماء، وأصله فارسي، وهو الصهري على البدل = ابن منظور، لسان العرب (2000) 8 / 298.

(5) ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، ص 128، كذلك: ابن سعيد، بسط الأرض بالطول والعرض، ص62.

(6) الإدريسي، نزهة المشتاق، 1 / 112.

(7) أبو الفدا، تقويم البلدان، ص147.

ثبت المصادر والمراجع

اولا / المصادر :-

- ابن الأثير : محمد بن عبدالواحد (ت : 630 هـ / 1232 م)
الكامل في التاريخ ، دار الكتاب العربي ، ط3 ، بيروت ، 1980 م .
- الادريسي : ابو عبدالله محمد بن محمد عبدالله الشريف (560 هـ / 1166 م) .
نزهة المشتاق في اختراق الافاق ، عالم الكتب ، ط1 ، بيروت ، 1989 م .
- الالوسي : السيد محمود شكري البغدادي (1342 هـ / 1924 م) .
بلوغ الأرب في معرفة احوال العرب ، تصحيح : محمد الاثري ، منشورات
الشرق و بيروت .
- البغدادي : صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق (739 هـ / 1338 م) .
مراصد الاطلاع على اسماء الامكنة والبقاع ، تحقيق : علي محمد النجاوي
دار احياء الكتب العربية ، ط1 ، القاهرة ، 1954 م .
- البكري : ابو عبدالله عبدالله بن عبدالعزيز (487 هـ / 1094 م) .
المسالك والممالك ، تحقيق : ادريان فان ليوتن و اندري فيري ، الدار
العربية للكتاب ، تونس ، 1992 م .
- ابن البيطار : ضياء الدين ابي محمد عبدالله الأندلسي (646 هـ / 1248 م) .
الجامع لمفردات الأدوية والاغذية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1992 .
- التجاني : ابو محمد عبدالله محمد بن احمد (حوالي 717 هـ / 1317 م) .
رحلة التجاني ، تقديم : حسن حسني عبدالوهاب ، الدار العربية للكتاب ،
ليبيا و تونس ، 1961 م .
- ابن دقماق : صادق الدين ابراهيم بن محمد (809 هـ / 1406 م) .
نزهة الانام في تاريخ الاسلام 628 - 659 هـ ، تحقيق : سمير صبارة ،
المكتبة العصرية ، ط1 ، بيروت ، 1999 م .
- ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد (808 هـ / 1403 م) .
العبر وديوان المبتدا والخبر ، مؤسسة الاعلى للمطبوعات ، بيروت ، 1971م .

- الحميري : محمد بن عبدالله عبدالمنعم (خلال : 9هـ / 15 م) .
الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق : احسان عباس ، دار العلم للطباعة ، بيروت ، 1975 م .
- ابن حوقل : ابي القاسم محمد بن علي الموصلبي النصيبي (358 هـ / 968 م) .
صورة الارض ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، 1992 م .
- الدمشقي : شمس الدين محمد بن ابراهيم أبي طالب الانصاري (727هـ / 1326م).
نخبة الدهر في عجائب البر والبحر ، مكتبة المثنى ، بغداد .
- ابن ابي دينار : ابو عبدالله محمد بن ابي القاسم القيرواني (1092هـ / 1681 م) .
المؤنس في أخبار افريقية وتونس ، ط1 ، تونس .
- ابن رسته : ابي علي احمد بن عمر (كان حيا مطلع ق 4هـ / 10 م) .
الأعلاق النفيسة ، مطبعة بريل ، ليدن ، 1891 م .
- سراج الدين الوردی : ابي حفص بن عمر (861 هـ / 1456 م) .
خريدة العجائب وفريدة الغرائب ، تحقيق : محمود فاخوري ، دار الشرق العربي ، بيروت .
- ابن سعيد المغربي : ابي الحسن علي بن موسى (673 هـ / 1274 م) .
كتاب الجغرافيا ، تحقيق : اسماعيل العربي ، منشورات المكتب التجاري ، ط1 ، بيروت ، 1970 م .
بسط الارض في الطول والعرض ، تحقيق : خوان قرنيط ، تطوان ، 1956 م .
- العبدري : ابو عبدالله محمد بن محمد الحاحي (خلال : 700 720 هـ / 1300-1320 م) .
الرحلة المغربية أو رحلة العبدري ، تحقيق : محمد الفاسي ، منشورات جامعة محمد الخامس ، الرباط ، 1968 م .
- العياشي : ابو سالم عبدالله بن محمد بن ابي بكر (1090 هـ / 1702 م) .
الرحلة العياشية المسماة ماء الموائد ، فاس ، 1316 هـ .

- ابوالفداء : عماد الدين اسماعيل بن محمد (732 هـ / 1330 م) .
تقديم البلدان ، تحقيق : رينو ودي ارسلان ، البان ماك كوكين ، باريس ،
1840 م .
- ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبدالرحيم الحنفي (807 هـ / 1405 م) .
تاريخ بن الفرات 672 - 682 هـ ، تحقيق : قسطنطين زريق ، منشورات
جامعة بيروت الامريكية ، المطبعة الأمريكية ، بيروت ، 1992 م .
- ابن فضل الله العمري : شهاب الدين احمد بن يحيى (749 هـ / 1349 م) .
مسالك الابصار في ممالك الامصار ، تحقيق : ايمن فؤاد سيد ، المعهد
العلمي للآثار الشرقية ، القاهرة ، 1985 م .
- القزويني : زكريا محمد بن محمود (682 هـ / 1283 م) .
آثار البلاد واخبار العباد ، دار صادر ، بيروت ، 1969 م .
- القلقشندي : أبي العباس احمد بن علي (821 هـ / 1418 م) .
صبح الاعشى ، شرح وتعليق : نبيل خالد الخطيب ، دار الكتب العلمية ،
ط 1 ، بيروت ، 1987 م .
- الكرخي : ابواسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي الأصبخري (349 هـ / 960 م) .
المسالك والممالك ، تحقيق : محمد جابر عبدالعال الحسيني ، الجمهورية
العربية المتحدة ، 1961 م .
- المراكشي : عبدالواحد بن علي التميمي (647 هـ / 1254 م) .
المعجب في تلخيص اخبار المغرب ، تحقيق : خليل عمران المنصور ،
منشورات دار الكتب المصرية ، ط 1 ، بيروت ، 1998 م .
- مؤلف مجهول : (خلال القرن 6هـ / 11 م) .
الأستبصار في عجائب الامصار ، تعليق : سعيد زغلول ، دار الشؤون
الثقافية ، بغداد و 1986 م .
- المقديسي : ابو عبد الله محمد بن احمد البشاري (380 هـ / 990 م) .
أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، مطبعة بريل ، ط 2 ، ليدن ، 1909 م .

- المقريري : الامام تقي الدين احمد بن علي بن عبدالقادر (845 هـ / 1446 م) .
كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، نشر : محمد مصطفى زيادة ، مطبعة
لجنة التأليف ، القاهرة ، 2006 م .
جني الازهار في الروض المطار ، تحقيق : محمد زينهم ، الدار الثقافية ،
ط1 ، القاهرة ، 2008 م .
- المنجم : اسحاق بن حسين (خلال 4 هـ / 10 م) .
آكام المرجان في ذكر المدائن المشهورة في كل مكان ، تحقيق : فهمي سعد
عالم الكتب ، ط1 ، بيروت ، 1988 م .
- ابن منظور : ابوالفضل عبدالله محمد بن مكرم (711 هـ / 1311 م) .
لسان العرب ، دار صادر و بيروت ، 1955 م و 2000 م .
- ياقوت الحموي : شهاب الدين ابوعبدالله الرومي (626 هـ / 1228 م) .
معجم البلدان ، دار بيروت ، دار صادر ، بيروت ، 1979 م .
- اليعقوبي : احمد بن يعقوب اسحاق بن جعفر (284 هـ / 897 م) .
فتوح البلدان ، تحقيق : محمد امين فتاوي ، منشورات محمد علي
بيضون لنشر كتب السنة والجماعة ، دار الكتب الوطنية ، بيروت ،
2002 م .

ثانيا / المراجع :-

- ادريس حمودة :
امارة بني ثابت في طرابلس الغرب ، 724 - 755 هـ / 1323 - 1354 م ، دار ومكتبة بن حمودة ، زليتن ، 2004 م .
- احمد بك النائب الانصاري :
المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ، منشورات مكتبة الفرجاني ، طرابلس - ليبيا .
- خير الدين الزركلي :
الاعلام ، ب ط ، ب ت .
- روبر بارنشفيك :
تاريخ افريقية في العهد الحفصي من القرن 13 الي تهاية القرن 15 م ، ترجمة : حمادي الساحلي ، دار الغرب الاسلامي ، بيروت ، 1988 م .
- سالم شلاي :
عناوين على نواحي المحروسة طرابلس القديمة ، منشورات مكتبة الفرجاني ، ط 1 ، طرابلس ، 1994 م .
- سعيد على حامد :
مدينة اجدابيا نشأتها واهميتها ، مجلة تراث الشعب ، طرابلس ، السنة الخامسة ، ديسمبر 1984 م ، العدد : 14 ، مجلد : 5 .
- صالح السباني :
ليبيا اثناء العهد الموحدوي والدولة الحفصية من القرن 6 - 10 هـ / 12 - 16 م ، منشورات مركز جهاد الليبيين ، طرابلس ، 2006 م .
- الطاهر الزاوي :
تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، دار المعارف ، ط 2 ، مصر ، 1962 م .
معجم البلدان الليبية ، مكتبة النور ، ط 1 ، طرابلس ، 1968 م .

- عبدالله كامل موسى :
دراسات في الحضارة والآثار الاسلامية في ليبيا ، دار الافاق العربية ، ط 1
القاهرة ، 2002 م .
- عبداللطيف البرغوثي :
تاريخ ليبيا الاسلامي منذ الفتح حتى العصر العثماني ، منشورات الجامعة
الليبية ، دار صادر ، طرابلس ، بيروت ، 1972 م .
- علي ابراهيم حسن :
تاريخ جوهر الصقلي ، مطبعة حجازي ، ط 1 ، القاهرة ، 1933 م .
- علي سميو :
دراسة وتحقيق المقالة الثلاثين من كتاب التصريف لمن عجز عن التأليف
لمؤلفه ابوالقاسم الزهراوي ، رسالة ماستر نوقشت بكلية الاداب جامعة
مصراتة بتاريخ 2003 م .
- علي الشطشاط :
تاريخ الجراحة في الطب العربي ، منشورات جامعة بنغازي ، ط 1 ، بنغازي
1999 م .
- علي مفتاح منصور :
الرحالة العرب ودورهم في كتابة تاريخ ليبيا السياسي والاقتصادي في القرنين
17 و 18 م ، منشورات مركز الجهاد الليبي ، طرابلس ، 2005 م .
- لوجلي صالح :
المدينة المتغيرة اجدايبا 1966 – 1990 م ، منشورات جامعة قاريونس ،
بنغازي ، 1999 م .
- محمد الحراري :
ليبيا عبر كتابات الرحالين المغاربة في القرنين السادس عشر والسابع عشر ،
الميلاديين ، منشورات شعبة الاعلام والثقافة ، ط 1 ، طرابلس ، 1998 م .

- مفتاح عبدالجليل :
وصف طرابلس الغرب في الرحلة التيجانية ، مجلة الدعوة الاسلامية ،
منشورات جمعية الدعوة الاسلامية ، طرابلس ، 2000 م .
- مسعود شقلوف :
اجدايبا تاريخها واثارها ، بنغازي ، 1981 م .
- نقولا زيادة :
ليبيا في العصور الحديثة ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ،
1996 م .
- وليم نظير :
الزراعة في مصر الإسلامية من عهد الخلفاء الراشدين الي عهد الثورة ،
صادر عن مراقبة التحرير والنشر والمكتبات ، القاهرة ، 1969 م .